البراهين العقلية على البعث في القرآن الكريم

Mental proofs of the Baath on the Holy Quran

ط د. عبد الجبار تركي [1, 3, 4]، أ. د. عبد الكريم رقيق [2]
[1] جامعة باتنة1، (الجزائر
[2] جامعة باتنة1، (الجزائر)
[3] مخبر العلوم الإسلامية في الجزائر، تاريخها، مصادرها، أعلامها،
[4] عبد الجبار تركي: البريد الالكتروني: terkiaj93@gmail. com

تاريخ الاستلام: 20223/04/15 تاريخ القبول للنشر: 2023/12/11 تاريخ النشر: 2023/12/31

❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖

ملخص:

تعتبر مسألة وقوع البعث يوم القيامة من أبرز المسائل التي أنكرها وجحدها مشركو قريش في زمن بعثة النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وقد أقام الله عز وجل عليها في القرآن الكريم البراهين العقلية المختلفة ورد كل الشبهات المثارة حولها، ومن أبرز هذه البراهين ما يأتي: أولا: برهان النشأة الأولى للإنسان وبرهان خلق السموات والأرض اللذان يعتبران في القياس أولى في القدرة على القيام للبعث. ثانيا: برهان إحياء الأرض بعد موتها وهو من أظهر الأدلة العقلية على وجود البعث لقيامه على شواهد الحس والنظر المتكرر. ثالثا: برهان الحكمة والعدل الإلهي؛ وهذا البرهان من تدبره وتأمله يدرك أن أفعال الإنسان قبحها وحسنها لابد من حسابه عليها، لأن المسيء قد لا يعاقب على إساءته في هذه الدار، و المحسن قد لا ينال ثوابه بها، فاقتضت حكمة الله قيام دار أخرى للعدل والقضاء بين العباد على أرض المعاد.

الكلمات المفتاحية: : البراهين العقلية؛ البعث؛ القرآن الكريم، القياس.

Abstract:

The question of the fall of the Baath party on the day of resurrection is considered one of the most prominent issues that the participants in Quraish denied and disregarded at the time of the resurrection of the Prophet Muhammad (PBUH). First: Proof of the initial development of a man and of the creation of the heavens and the earth ،considered in measurements to be the first in the ability to perform a resurrection. Second: proof of the revival of the earth after its death ،which is the manifestation of mental evidence of the existence of the Baath party ،for its reliance on evidence of common sense and repetitive vision. Third: The proof of wisdom and divine justice ،and this evidence from his contemplation and contemplation ،realizes that man's actions ،their ugliness and good ،must be counted upon ،because the abuser may not be punished in this courtyard ،and the benefactor may not get his reward in them. Therefore ،God's wisdom requires the establishment of another house of justice and justice among the worshipers on the Promised Land.

key words: mental proofs ;the baath; The Holy Quran; Mensuration

مقدّمة:

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله صلى الله وسلم عليه وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

لقد حث القرآن الكريم على إعمال العقل في الدين عموما وفي العقيدة خصوصا، قصد بناء عقيدة صحيحة وقوية للمسلم تحول بينه وبين ما يعترض له من شبهات حول أصول الإسلام وقواعده، قال تعالى: [**سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ(53) أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ (54)**]. (**سورة فصلت**).

إن الناظر في طريقة القرآن الكريم وأسلوبه في تقرير هذه الأصول؛ يجدُ فيها من الدلالات العقلية ما تُحار فيه العقول من الدقة والجلاء في إيصال المقصود ووضوح المطلوب، ومن جملة الأصول التي رام القرآن الكريم بيانها أصلُ وقوعِ يوم المعاد لجميع العباد ببراهين عقلية مختلفة ومتنوعة، كل واحدة منها تشفي العليل وتروي الغليل وتثبت لدى المتأمل الدليل إن قصد الحق والاهتداء إلى سواء السبيل.

ومن خلال ما تم ذكره يمكن طرح التساؤل الآتي: **ما هي أبرز البراهين العقلية التي اعتمد عليها القرآن الكريم في تقرير عقيدة البعث والمعاد يوم القيامة؟**

أهداف البحث: يهدف البحث إلى تحقيق أمور أهمها:

1-بيان استفاضة القرآن الكريم بذكر الأدلة العقلية على البعث.

2-إظهار قوة الحجة العقلية التي استعملها القرآن الكريم في الرد على المعاندين والمشككين.

3-إبراز دافع الهوى والكبر لدى المشركين الذي حال بينهم وبين الإقرار بعقيدة البعث.

4-بيان تنوع طرق الاستدلال على عقيدة البعث في القرآن الكريم.

5-بيان حرص القرآن الكريم على هداية منكري البعث من خلال عنايته برد شبهاتهم ودفع افتراءاتهم.

6-بيان اهتمام القرآن الكريم بتثبيت العقيدة لدى المسلمين بالبراهين العقلية.

المنهجية المعتمدة:

اعتمدت في هذا الموضوع على ثلاثة مناهج؛ وهي كالآتي:

1-المنهج الاستقرائي: ويظهر من خلال تقصي جميع الأدلة العقلية في هذا الموضوع وبيان اختلافها وتنوعها.

2-المنهج التحليلي: استعملته في بيان سبب إعراض منكري البعث عن قبولهم الحق والأمثال إليه.

3-المنهج النقدي: وقد اعتمدته في رد الشبه المثارة حول عقيدة البعث من طرف المشركين.

الخطة المعتمدة:

مقدمة.

مبحث تمهيدي: التعريف بمصطلحات عنوان المقال.

المطلب الأول: تعريف البرهان العقلي.

المطلب الثاني: تعريف البعث.

المبحث الثاني: أبرز البراهين العقلية على البعث في القرآن الكريم.

المطلب الأول: برهان الخلق.

المطلب الثاني: برهان إحياء الأرض الميتة.

المطلب الثالث: برهان الحكمة والعدل الإلهي.

خاتمة.

مبحث تمهيدي: التعريف بأهم مصطلحات البحث

في هذا المبحث التمهيدي سأتطرق إلى التعريف بكل من البرهان العقلي والبعث، قصد بيان حقيقة هذين المصطلحين ليسهل التعامل مع معناهما في صلب موضوع البحث، وذلك كالآتي:

المطلب الأول: تعريف البرهان العقلي

الفرع الأول: تعريف البرهان

أولا: لغة: جاء في لسان العرب: " البرهان الحجة الفاصلة البيّنة، يُقال: يُبرهن برهنةً إذا جاء بحجة قاطعة للّدُدِ الخصم، فهو مبرهن"(ابن منظور، 1414هـ، صفحة 51). وقال صاحب القاموس المحيط: "أن البُرهان بالضم هو الحجّة". (الفيروز آبادي، 1426هـ/2005م، صفحة 1180)

ثانيا: اصطلاحا: اختلفت تعريفات العلماء لمصطلح البرهان في ألفاظها؛ غير أنها اشتركت في معنى الحجة أو الدليل في حالة كونه يقينا قاطعا نافيا للاحتمال عن المبرهن عنه.

فقيل في تعريفه: البرهان: "هو الحجّة القطعية المقيّدة لليقين". (ابن عرفة، 2008 م، صفحة 76)

وقيل: البرهان: "هو الدليل القاطع للعذر والحُجة المزيلة للشبهة". (حوى، 1424هـ، صفحة 1261)

وعُرّف أيضا: "هو الحُجّة القاطعة في موضوعها والتي لا تقبل النقض، كما لا تقبل أدنى درجة من الاحتمال أو الشك". (حامد صبح، 1424هـ/2003م، صفحة 34)

وتفيدنا جملة هذه التعريفات اللغوية والاصطلاحية معاً أن البرهان أخص من الدليل الذي يعطي مفهوم الحجّة من غير تقيّدها باليقين أو القطع، وفي هذا قال صاحب عمدة الحُفّاظ: "البرهان هو الدليل القاطع، فهو أخص من الدليل الواضح وهو أوكد الأدلة". (ينظر: ابن عبد الدائم، 1417هـ/1996م، صفحة 185)

الفرع الثاني: تعريف العقل:

أولا: لغة: يطلق العقل في اللغة ويراد به: المنع والحبس.

قال ابن منظور: "العقلُ هو الحِجرُ والنُهى ضد الحُمق، وعَقَلَ فهو عاقلٌ وعَقُولٌ من القومِ عقلاء. ورجلٌ عاقل وهو الجامع لأمره ورأيه مأخوذة من عَقلتْ البعير إذا جُمعت قوائمه، وقيل العاقل الذي يحبس نفسه ويردها عن هواها، أُخذ من قولهم قد اعتقلَ لسانه إذا حُبس ومُنع الكلام. والعقل: التثبت في الأمور، وسمي العقلُ عقلاً لأنه يعقل صاحبه عن التورط في المهالك أي يحبسه، وقيل: العقل هو التمييز الذي به يتميز الإنسان عن سائر الحيوان". (ابن منظور، 1414هـ، الصفحات 458-459)

وقال ابن فارس: "العين والقاف واللام أصل واحد منقاسٌ مطّردٌ يدل عُظمه على حُبسةٍ في الشيء أو ما يقارب الحُبسة من ذلك العقل، وهو الحابس عن ذميم القول والفعل. قال الخليل العقل: نقيض الجهل، يقال: عَقَلَ يعْقِلُ عقلاً: إذا عرف ما كان يجهله قبلُ، أو انزجرَ عما كان يفعله"(ابن فارس، 1399هـ/1979م، صفحة 69)

ثانيا: اصطلاحا: عُرّف العقل بعدة تعريفات متباينة منها:

"هو مركز الفكر والفهم والمخيلة، وبه يكون التفكير والاستدلال عن غير طريق الحواس، وهو أيضا جوهر مجرد عن المادة مقره الدماغ، به تُدرك العلوم الضرورية والنظرية". (ينظر: عبد الحميد عمر، 1429هـ/2008م، صفحة 1531)

وعرّفه الجرجاني بقوله: "هو جوهر مجرد عن المادة في ذاته مقارنٌ لها في فعله، وهي النفس الناطقة التي يشير إليها كل أحد بقوله أنا". (الجرجاني، 1403هـ/1983م، صفحة 151)

فهذان التعريفان قاما بإعطائنا صورة عن ماهية العقل وحقيقته؛ وأنه جوهر مجرد عن المادة، يكون به الفهم والفكر والاستدلال؛ محله الدماغ، به يدرك الإنسان كل ما يدور حوله.

وقيل أيضا: "أن العقل على قسمين غريزي ومكتسب. فالغريزي هو العلم بالمدركات الضرورية وهو نوعان:

أحدهما ما وقع عن درك الحواس مثل المرئيات المدركة بالنظر والأصوات المدركة بالسمع. . .

والثاني: ما كان مبدئيا في النفوس كالعلم بالشيء لا يخلو من وجود أو عدم، وأن الموجود لا يخلو من حدوث أو قدم.

وأما المكتسب فهو نتيجة العقل الغريزي وهو نهاية المعرفة وصحة السياسة وإصابة الفكرة". (ينظر: الماوردي، 1986، صفحة 18_20)

فالإمام الماوردي لم يبين حقيقة العقل وماهيته، وإنما قسم العقل قسمين؛ غريزي ومكتسب؛ وشرح كل نوع منهما من غير بيان لحقيقته.

فاختلفت أنظار العلماء في بيان ماهية العقل وكنهه، وذلك لاختلافهم في تكييفه.

الفرع الثالث: تعريف البرهان العقلي:

يعرفُ البرهان العقلي بأنه: "الدليل القطعي الذي لا يتطرق إليه أدنى شبهة في إقامة الحجة". (حبنكة الميداني، 1412هـ/1991م، صفحة 542)

وقيل: "هو الذي يبدأ من مقدمات يُقر بها المخالف، ليُنقل منها عن طريق الإلزام إلى الإقرار بما ينكره". (الجربوع، 1424هـ/2003م، صفحة 1022)

فيفهم من التعريفين أن البرهان العقلي هو إقامة الحجة على المبرهن عليه وفق طرائق العقل وأساليبه في الإقناع التي يسلّم بها الخصم، ولا تبقى معه أدنى شبهة في ذلك.

ويمكن القول أيضا بأن البرهان العقلي هو الحجة البينة والدليل القاطع الذي ترضاه الفطر السليمة، ولا تقوى على رده النفوس العليلة، مثّبت في النفوس أو مدرك بالحواس أو مجمعة عليه التجارب من طريق الناس.

المطلب الثاني: تعريف البعث

الفرع الأول: لغة

يطلق البعث في اللغة على الإثارة والإرسال.

قال ابن فارس: "بَعَثَ: الباء والعين والثاء أصل واحد وهو الإثارة. ويقال: بعثت الناقة، إذا أثرتُها". (ابن فارس، 1399هـ/1979م، صفحة ص266)

والبعث: الإرسال، ومنه قوله تعالى: [وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً(36)]. (سورة النحل). ويكون نشورا كما في قوله تعالى: [ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ(60)]. (سورة الأنعام)، أي يحييكم". (ينظر: الهروي، 1419هـ/1999م، صفحة 192)

وجاء في اللسان: "بعث، يبعثه بعثا: أرسله وحده، يقال: ابتعث الشام عيرا إذا أرسلوا إليها ركابا للمِيرة". (ابن منظور، 1414هـ، صفحة 116)

الفرع الثاني: اصطلاحا

عُرف البعث في الاصطلاح بعدة تعريفات؛ أهمها:

-"هو إخراج الموتى من القبر أحياء". (الدهلوي، 1435هـ/2014م، صفحة 113)

-وعرفه عبد الكريم الخطيب بقوله: "هو عودة إلى الحياة التي فارقها الإنسان في رحلته التي بدأت بالموت". (الخطيب، د. ت، صفحة 1544)

-وقيل أيضا: "هو بعث الموتى من القبور؛ ويعيدهم معادا جسمانيا، بأن يجمع ما تفرق من أجسامهم، ثم ينشئهم نشأة أخرى، ثم يعيد أرواحهم، دل على ذلك قوله تعالى: [قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ (24) قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ (25)]. (سورة الأعراف)". (الخميس، 1419هـ، صفحة 97)

-وعرفه أيضا سيد سابق بقوله: "هو إعادة الإنسان روحا وجسدا، كما كان في الدنيا". (سابق، د. ت، صفحة 269)

فمن خلال النظر في جملة هذه التعريفات أقول أن البعث هو إخراج الموتى من قبورهم على الهيئة التي كانوا عليها في الدنيا للحساب والجزاء.

المبحث الثاني: أبرز البراهين العقلية على البعث في القرآن الكريم

لقد بيّن الله سبحانه وتعالى البراهين العقلية في القرآن الكريم على البعث وأظهرها بشكل واضح وجلي، لا تخفى على العوام فضلا عن غيرهم من أولي الأحلام و النهى، وقد اختلف العلماء رحمهم الله اختلاف تنوع في عدّها واتفقوا على حصرها، فأشار شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله كما في كتابه درء تعارض العقل والنقل" أن للبعث برهانين عقليين. . . "، (ينظر: ابن تيمية، 1411هـ/1991م، صفحة 375)

في حين ذكر صاحب كتاب أضواء البيان على أنها أربعة(ينظر: الشنقيطي، 1415هـ/1995م، صفحة 338_339)، ومنهم من زاد على ذلك. (السعدي، تيسير الكريم الرحمان في تفسير كلام الرحمان، 1420هـ/2000م، صفحة 699)

والذي أراه مناسبا من جهة ظهور الدليل وصحة الاستدلال أن للبعث والمعاد ثلاث براهين عقلية، وزعتها على ثلاثة مطالب، وتفصيلها على النحو الآتي:

المطلب الأول: برهان الخلق

إن من أكثر البراهين العقلية جلاءً ووضوحاً في الدلالة على البعث يوم القيامة في القرآن الكريم هو برهان الخلق، الذي أقام الله تعالى به الحجة على كل مكابر ومعاند بطرق متنوعة وبصور مختلفة، ومن جملة هذه الطرق ما يأتي:

الفرع الأول: الاستدلال بخلق السموات والأرض

إن الناظر في عِظم خلق السماوات والأرض وإحكامهما والاستدلال بهما على البعث والمعاد نظرة تعقل وتدبر، يجد في نفسه أنه لا مناص؛ ولا محيد من الاعتراف بقيام العباد ليوم المعاد، لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، أما من ختم الله على قلبه وكابر وعاند فحقيق أن يقال فيه كما قال تعالى: [وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ (101)]. (سورة يونس)، وقوله: [وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (97)]. (سورة يونس).

إن خلق السموات والأرض لمن أكبر الآيات والبراهين الدالة على بعث الإنسان بعد موته لحسابه وجزاءه، قال تعالى: [لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (57)].

(سورة غافر)، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "فإنه من المعلوم ببداهة العقول أن خلق السموات والأرض أعظم من خلق أمثال بني آدم والقدرة عليه أبلغ - وأن هذا الأيسر أولى بالإمكان والقدرة من ذلك"(ابن تيمية، 1416هـ/1995م، صفحة 299).

فيفهم من الآية ومما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية؛ أن في خلق السموات والأرض وما فيهما أعظم من خلق هذا الإنسان الضعيف، فإحياؤه بعد موته، وبعد أن يصبح رميما من باب قياس الأولى في حق الله عز وجل، وأنه عليه أهون، وفي كل هذا إثبات لقدرة الله على بعث الموتى من قبورهم.

وقال السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية: "يخبر تعالى بما تقرر في العقول، أن خلق السماوات والأرض -على عظمهما وسعتهما- أعظم وأكبر، من خلق الناس، فإن الناس بالنسبة إلى خلق السماوات والأرض من أصغر ما يكون فالذي خلق الأجرام العظيمة وأتقنها، قادر على إعادة الناس بعد موتهم من باب أولى وأحرى. وهذا أحد الأدلة العقلية الدالة على البعث، دلالة قاطعة، بمجرد نظر العاقل إليها، يستدل بها استدلالا لا يقبل الشك والشبهة بوقوع ما أخبرت به الرسل من البعث"(السعدي، تيسير الكريم الرحمان في تفسير كلام المنان، 1420هـ/2000م، صفحة 740).

وقد تفطن الإمام السعدي رحمه الله إلى مكمن الاستدلال العقلي والبرهان الحسي في هذا الآية على وجود البعث؛ ومعاد الأرواح إلى أجسادها، فقال: "وهذا أحد الأدلة العقلية الدالة على البعث، دلالة قاطعة"

ووصف هذه الحجة بالقطعية واليقينية التي لا تدع لجاحدها مجالا للشك والشبهة، وأن ما أخبرت به الرسل وحيا من ربها واقعٌ لا محالة.

وكما أن في هذه الآية حجة قاطعة على كل من أدبر واستكبر، وتولى وكفر، وعاند لأنهم لا يتدبرون الحجج والبراهين التي يقيمها الله على شيء مهم، أنكره المنكرون وجحده الكافرون، وكذبوا به المرسلين.

وقال تعالى يوقظ قلوب المشركين المعاندين في التأمل في آيات الله الكونية التي فيها برهان عقلي واضح على معاد المخلوقات بعد موتها وإحيائها مرة أخرى: [أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا (99)]. (سورة الإسراء)

والقول في تأويل هذه الآية وتفسيرها؛ هو أن الله يذكر نبيّه محمد صلى الله عليه وسلم: فيقول له: أولم ينظر هؤلاء القائلون من المشركين: (أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا) بعيون قلوبهم، فيعلمون أن الله الذي خلق السماوات والأرض، فابتدعها من غير شيء، وأقامها بقُدرته، قادر بتلك القُدرة على أن يخلق مثل أشكالهم، وأمثالهم من الخلق بعد فنائهم، وقبل ذلك، وأن من قدر على ذلك فلا يمتنع عليه إعادتهم خلقا جديدا، بعد أن يصيروا عظاما ورُفاتا"(الطبري، د. ت، صفحة 562).

وهذه بعض الآيات الأخرى على هذا النوع في الاستدلال العقلي على البعث، قال تعالى: [أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (33)]. (سورة الأحقاف)

ونلاحظ أن الله تعالى خاطب المعاندين في هذه الآية بمثل ما خاطبهم به في الآية التي قبلها، وأضاف صفة أخرى له عز وجل، وهي نفيه عن نفسه العياء والتعب والجهد في ذلك، فقال: "ولم يعي بخلقهن" وأن ذلك عنده لا يساوي جناح بعوضة.

السموات والأرض؛ حيث أكّد لنا أنه قادرٌ على أن يخلق مثلها، ولا يعجزه شيء منها، وأن خلق الإنسان بعد موته لهو أهون عليه من ذلك، وهذا فيه إفحام آخر لكل معاند ومكابر وجاحد، فقال: [أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمۚ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (81)]. (سورة يس)

فكل هذه الآيات التي هي حجج عقلية من واقع المخلوقات ومشاهداتهم؛ تدل كما سبق على البرهان العقلي على البعث والمعاد. وأن الظالمون في ذلك أبوا إلا كفورا أي: جحودا، وهذا الجحود لا يَعدُ أن يكون في الظاهر من أحوالهم وإلا فسرائرهم وبواطنهم مقرّةٌ وشاهدةٌ على خلاف ما هم عليه، ومستيقنة لذلك مصداقا لقوله تعالى: [وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّاۚ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ(14)]. (سورة النمل).

الفرع الثاني: الاستدلال بالنشأة الأولى

لقد بيّن القرآن الكريم أن مسلك الاستدلال بالنشأة الأولى فيه إقامة الحجة القاطعة على من أنكر البعث والمعاد، وألزمهم بالذي أيقنوا به من كون أن الله عز وجلّ هو الذي خلقهم أن يقروا ولا ينكروا مكابرة أنه أهون عليه إعادتهم من جديد، قال تعالى: [وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (27)]. (سورة الروم).

وقد بين الشافعي رحمه الله المقصود بالأهون في هذه الآية فقال: "ومعناه: هو أهون عليه في العبرة عندكم، لما كان يقول للشيء كن؛ فيخرج مفصلاً بعينيه وأذنيه، وسمعه ومفاصله، وما خلق اللّه فيه من العروق فهذا في العبرة أشد من أن يقول لشيء قد كان: عُدْ إلى ما كنت عليه"(الشافعي، 1427هـ/2006م، صفحة 1174).

فخلق الإنسان بما فيه من آيات وعبر في جسمه وبدنه، فيه عبرة كبيرة لنا من أن يقول للشيء الذي كان عد إلى ما كنت عليه قبل الموت.

وقال الباقلاني رحمه الله في بيان معنى الأهون في هذه الآية: "وكذلك قوله تعالى {وهو أهون عليه} يعني عندكم وفي اعتقادكم وظنونكم أن ابتداء الشيء على كل فاعل أهون عليه من إعادته"(الباقلاني، 1407هـ/1987م، صفحة 351).

فمن أدلة القرآن العقلية في الاستدلال على قضية البعث؛ قياس الأولى فالإله القادر على البداءة؛ قادرٌ على الإعادة. (الفوزان، 1434هـ/2012م، صفحة 216).

ثم صرح الله عز وجل في آية أخرى بأنه يبدأ الخلق ثم يعيده كما خلقه أول مرة؛ وهو عليه سهل ويسير فقال تعالى: [أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (19)]. (سورة العنكبوت].

فالله عز وجل أرشد خليله إبراهيم عليه السلام، أن ينبّه قومه إلى إثبات المعاد الذي ينكرونه، بما يشاهدونه في الحس، وفي أنفسهم من خلق الله لهم، بعد أن لم يكونوا شيئا مذكورا، ثم وجدوا وصاروا بشرا سامعين مبصرين، فالذي بدأ هذا قادر على إعادته، فإنه سهل عليه يسير لديه"(ابن كثير، 1420هـ/1999م).

فكيف يرتاب المعاندون والجاحدون للبعث والمعاد، وعلتهم في ذلك استحالة الإحياء بعد الإماتة ولا يتفكر هؤلاء أن الله أوجد الإنسان من تراب ثم من نطفة ثم طوره أطوارا في رحم أمه"(ابن عاشور، 1984م).

وهذا هو منهج القرآن الكريم في إقامة الحجة على المخالف، حيث يبدأ معه بما يقر به ابتداءً ليوصله إلى الاقتناع بما ينكره انتهاءً من طريق الأولى والأحرى بالقياس.

ومن أمثلة هذا المنهج العقلي في البرهنة على البعث في القرآن الكريم ما يأتي:

قال تعالى: [وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ(87)]. (سورة الزخرف)، وقال: [وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ (38)]. (سورة الزمر)،

فإذا كان الأمر كذلك فلماذا ينكر هؤلاء البعث وهم يعلمون ويدركون حقيقة النشأة الأولى، وأنه عز وجل هو الذي أنشاهم، وصورهم في الأرحام كيف يشاء؟

وما ذلك إلا لكثرة الخصومة والجدل والمعاندة والمكابرة في الباطل، وتناسي الأصل الذي خلقوا منه، كما قال تعالى: [وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ (62)]. (سورة الواقعة)

وقال عز من قائل في تقرير كيفية النشأة الأولى: [أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ(77)وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۖ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ(78)قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (79)]. (سورة يس).

وسبب نزول هذه الآية:

أن أبيّ بن خلف بن وهب الجمحي، أخذ عظماً قد نخر بيده وجاء به إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا محمد تزعم أن الله يحي الموتى بعد أن كانوا عظاماً بالية وترابا، أترى الله يحي هذا بعد أن أرمو وجعل يفتته بيده، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: "يحي الله هذا ويميتك ثم يبعثك ثم يدخلك نار جهنم". فأنزل الله تعالى هذه الآية: {أَوَلَمْ يَرَ الإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ} الآية.

فأوضح سبب نزول هذه الآية أنهم أنكروا إعادة الأرواح إلى أبدانها بعد أن صارت عظاما بالية ورفاتا ورميما، واستعجبوا أن يعيدها الله مرة أخرى على ما كانت عليه.

فاحتج الله عليهم بابتدائه لخلقهم الذي أقروا به، وأنه يحييهم بعد أن صاروا عظاماً رميما كما أنشأهم أول مرة"(العمراني، 1419هـ/1999م).

وقال تعالى في برهان رباني واضح الدلالة على قصد إثبات البعث والنشور بعد أن أنكره واستغربه المنكرون والجاحدون: [وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا(49)قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا (50)أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا(51)]. (سورة الإسراء).

ومن تأمل هذه الآيات يجد أن استفسارهم عن موعد البعث بعد إقامة الحجة عليهم في كون وجوده، دليل على إقرارهم بحتمية وقوعه، وإن لم يصرحوا بذلك نتيجة لما أُعمل في قلوبهم من أدواء الكبر والبغي بغير الحق"(ينظر: توفيق، 1424هـ/2004م).

وهذا عين ما وقع لقوم إبراهيم عليه السلام من الحق في قلوبهم لمّا أقام عليهم الحجة في عدم استحقاق أوثانهم العبادة من دون الله؛ لعجزها عن نصرة نفسها؛ فكيف أن تملك هذه الحجارة والأصنام لهم النفع والضر من دون الله، ولكن أبى الظالمون إلا كفورا، قال تعالى: [قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ (62)قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ(63)فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ(64)ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ(65) قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ (66)أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ(67)]. (سورة الأنبياء).

والآيات في القرآن الكريم على إثبات البعث من طريق النشأة الأولى كثيرة، كل واحدة منها تقام بها الحجة فضلا عن جميعها إذا ما ذكرت للمكابر والمعاند الذي ران على قلبه، فأصبح لا يبصر إلا الباطل ولا يعمى إلا على الحق والعياذ بالله، ولهذا من نظر للقرآن الكريم من باب" التذكر والتفكر في آلاء الله بعين الاعتبار والاستدلال لا بعين الغفلة والإهمال فالله يهديه بإذنه إلى سواء السبيل"(السعدي، تيسير الكريم الرحمان في تفسير كلام الرحمان، 1420هـ/2000م، صفحة 292)

ولنا في قصة تدبر إبراهيم عليه السلام مع آيات الله عبرة لأولي الألباب، سواءً أكان طلبه إياها لنفسه أو أراد بيانها لقومه محاجة لهم، فالحاصل أن بمثل هذا الطريق يحصل للإنسان مطلوبه، قال تعالى: [فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ(76)فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (77)فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّا

أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (78)إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (79)]. (سورة الأنعام).

والقرآن الكريم كما بيّن فيما سبق ذكره من البراهين العقلية على البعث بشكل واضح وبسيط؛ إلا أن الجهل والكبر في قلوب المكذبين حال بين قبولهم الحق والامتثال إليه.

المطلب الثاني: برهان إحياء الأرض الميتة

يعتبر هذا البرهان من البراهين العقلية الساطعة والحجة الدامغة لكل من أنكر البعث والمعاد، وذلك لما يتضمن من دلالات المشاهدة عن طريق الحسّ الذي ترتضيه النفوس من جهة القبول، ومن جحد بهذا النوع من البراهين فلا يستبين له سبيل ولا يظهر له دليل إلاّ أن يشاء الله رب العالمين، لأنه لا يبحث عن الحق طلبا وقصدا، وإنما يكابره استهزاء ومكرا، ولا يحيق المكر السيئ إلاّ بأهله.

قال تعالى"[وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۚ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(39)]. (سورة فصلت).

فالقادر على إحياء الأرض بعد موتها هو القادر على إحياء هذه الأجساد بعد موتها، لأن الخالق واحد وهو قادر على كل شيء و تقرير هذا الدليل؛ أن عودة التأليف والتركيب إلى تلك الأجزاء المتفرقة ممكن لذاته، وعود الحياة والعقل والقدرة إلى تلك الأجزاء بعد اجتماعها أيضا أمر ممكن لذاته، والله تعالى قادر على الممكنات، فوجب أن يكون قادرا على إعادة التركيب والتأليف والحياة والقدرة والعقل والفهم إلى تلك الأجزاء، وهذا يدل دلالة واضحة على أن حشر الأجساد ممكن لا امتناع فيه البتّة"(الرازي، 1420هـ).

وقال صالح الفوزان في تقرير برهان إحياء الأرض الميتة على بعث المخلوقات ونشورها: "ومن الأدلة على البعث ما يحصل للأرض من الحياة بالنبات، فنحن نرى الأرض الميتة ليس فيها نبات جرداء، ثم الله عزّ وجلّ ينزل عليها المطر، ثم ينبت النبات الذي كان هشيما ميتا، كذلك الأجسام كانت مخزنة في الأرض ينزل الله عليها مطرا ثم تنبت الأجسام وتتكامل ثم تنفخ فيها الأرواح" (الفوزان، 1434هـ/2012م، صفحة 217).

وقال تعالى في حشد الأمثال الحسية الواقعية وضربها على قضية البعث والمعاد: [وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ(57)]. (سورة الأعراف).

فالله عز وجل يقول مذكرا ومنبها لنا، فإنه كما نحيي هذا البلد الميت بما ننزل به من الماء الذي ننزله من السحاب، فنخرج به من الثمرات بعد موته وجدوبته وقُحُوط أهله، كذلك نخرج الموتى من قبورهم أحياءً بعد فنائهم ودروس آثارهم "لعلكم تذكرون" فهذا قياس جلي واقع في دنيانا، يضرب الله به المثل لنا في القدرة على نشورنا ومعادنا.

ويقيم الله حجة أخرى وبرهانا قطعيا على المشركين به من عبدة الأصنام، المكذبين بالبعث بعد الممات، فيقول: "ضربتُ لكم هذا المثل الذي ذكرت لكم: من إحياء البلد الميت بقَطْر المطر الذي يأتي به السحاب الذي تنشره الرياح التي وصفت صفتها، لتعتبروا فتذكروا وتعلموا أن مَنْ كان ذلك من قدرته، فيسيرٌ في قدرته إحياء الموتى بعد فنائها، وإعادتها خلقًا سويًّا بعد دُرُوسها"(الطبري، د. ت، صفحة 493).

فهذا استدلال واضح وبينٌ، فإنه لا فرق بين الأمرين، فمنكر البعث استبعادا له مع أنه يرى ما هو نظيره من باب العناد، وإنكار المحسوسات"(السعدي، تيسير الكريم الرحمان في تفسير كلام الرحمان، 1420هـ/2000م، صفحة 292).

ووجه الشبه في إخراج الأموات بإخراج النبات أن المنزلة فيهما سواء، والقادر على أحدهما قادر على الآخر في مقتضى العقل.

وسلطان الحس على العقل قوي، بل العقل يستمد برهانه عند الخصومة من المشاهدة إذا حوى على الاستدلال الظاهر، حتى تثبت الحجة القاطعة، ولهذا خاطب الله تعالى منكري البعث بالعقل في هذا الباب وبما هو متكرر "من مظاهر الطبيعة واتخذه وسيلة لإقناعهم به، لأننا نرى هذه المظاهر بأعيننا كل حين وتُقرب إلى أذهاننا فكرة الحياة بعد الموت"(البدوي، 2005م، صفحة 269).

وهذا البرهان العقلي ذُكر في القرآن الكريم في العديد من الآيات منها:

قال تعالى: [يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ۚ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ(5) ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(6)وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ (7)]. (سورة الحج)

وقال تعالى مجيبا على تعجب الكفار من بعثهم بعد طول الزمن من حال وفاتهم وتحول رفاتهم إلى تراب فقال: [بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ (2)أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ(3)]. (سورة ق)، فكان من جملة ما أجابهم الله تعالى بأن قال لهم[وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (7)تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ(8)وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ(9)وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ(10)رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ (11)]. (سورة ق)

وقال: [وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ النُّشُورُ (9)]. (سورة فاطر)

وقال: [وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ(24)]. (سورة فاطر).

قال ابن كثير رحمه الله في بيان معنى هذه الآية: "وفي ذلك عبرة ودلالة واضحة على المعاد وقيام الساعة؛ ولهذا قال: {إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون}"(ابن كثير، 1420هـ/1999م، صفحة 310).

وقال عزّ وجلّ: [اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ ۖ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ(48)وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ(49)فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ

عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(50)]. (سورة الروم)، وقال: [وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًاۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ (11)]. (سورة الزخرف).

قال ابن العثيمين رحمه الله في تفسيره لهذه الآية وما فيها من فوائد قال: "إثبات القياس، وأنه دليل عقلي وذلك أن العقل ينتقل من المقيس عليه إلى المقيس فهو دليل عقلي باعتبار كيفية الاستدلال"(ينظر: العثيمين، 1436هـ، صفحة 69).

وهذا النوع من القياس المسمى بقياس المعقول على المحسوس؛ أو قياس الغائب على الحاضر؛ هو إحدى طرق التعليل والتفهم وإثبات الحجج والبرهنة عليها.

وجملة هذه الآيات وغيرها في هذا السياق كلها من قبيل القياس، وضرب المثل، وهي من أبرز البراهين العقلية التي تُثبت بها الحجة القاطعة على المعاند والمكابر.

المطلب الثالث: برهان الحكمة و العدل الإلهي

يعتبر برهان الحكمة الإلهية من أعظم الشواهد العقلية على وجود البعث والمعاد يوم القيامة، وذلك باعتبار أن الإنسانية جمعاء تدرك وتلاحظ أن هذا العالم فيه الخير والشر، والعدل والظلم، والإيمان والكفر، كما تدرك أيضا أن المسيء يتمتع ببغيه. وأن المحسن قد لا ينال سعيه، فهل الدنيا خلقت هكذا عبثا لا محاسب ولا رقيب لكل جبار عتيد، ولا جزاء ولا نصيب لكل محسن منيب؟

والجواب على ذلك بأن يقال:

تقتضي حكمة الله وعدله أن يبعث الله عباده ليجزيهم بما قدموا، فالله خلق الخلق لعبادته، وأرسل الرسل وأنزل الكتب لبيان الطريق الذي يعبدونه به، فمن العباد من استقام على طاعة الله، وبذل نفسه وماله في سبيل ذلك. ومنهم من رفض الاستقامة على طاعة الله، وطغى وبغى، أفيليق بعد ذلك أن يموت الصالح والطالح ولا يجزي الله المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته [أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ(35)مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ(36)]. (سورة القلم). (الأشقر، 1415هـ/1995م، صفحة 86).

قال تعالى: [أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ(115)]. (سورة المؤمنون). قال القرطبي: "أي مهملين كما خلقت البهائم لا ثواب لها ولا عقاب عليها"(القرطبي، 1484هـ/1964م، صفحة 156).

فالله عز وجل لا يخلق إلا لحكمة، قد يدركها المخلوق وقد لا يدركها، ولما عجز المشركون في معرفة حكمته تعالى في مخلوقاته، قالوا عنه أنه تعالى يخلق الأشياء هكذا؛ دون حكمة ودون تدبير رباني محكم.

ولهذا قال تعالى نافيا عن نفسه خلق المخلوقات العظيمة عبثا: [وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًاۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُواۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ(27)]. (سورة ص).

فالله عز وجل يخبر عن تمام حكمته في خلق السماوات والأرض؛ وأنه لم يخلقهما باطلا أي عبثا ولعبا من غير فائدة ولا مصلحة، وإنما خلق الله السموات والأرض بالحق وللحق، فخلقهما ليعلم العباد كمال علمه وقدرته وسعة سلطانه، وأنه سبحانه وتعالى وحده المعبود؛ وأن البعث حق، وسيفصل الله بين أهل الخير والشر ولا يظن الجاهل بحكمة الله أنه يسوي بينهما في حكمه؛ ولهذا قال: [أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ(28)]. (سورة ص)

وهذا غير لائق بحكمة الله عز وجل وعدله في خلقه، قال تعالى: [وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ]. (سورة هود).

يعني: يثيب كل من تفضَّل بفضل ماله أو قوته أو معروفه على غيره محتسبًا بذلك، مريدًا به وجه الله أجزلَ ثوابه وفضله في الآخرة"(الطبري، صفحة 230).

وقال تعالى: "[أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ(8)]. (سورة الروم).

فالله في هذه الآية يخاطب نبيه فيقول له: أولم يتفكر هؤلاء المكذبون بالبعث يا محمد من قومك في خلق الله إياهم، وأنه خلقهم ولم يكونوا شيئا، ثم صرفهم أحوالا حتى صاروا رجالا فيعلموا أن الذي فعل ذلك قادر أن يعيدهم بعد فنائهم خلقا جديدا، ثم يجازي المحسن منهم بإحسانه، والمسيء بإساءته لا يظلم أحدا منهم، فيعاقبه بجرم غيره، ولا يحرم أحدا منهم جزاء عمله، لأنه العدل الذي لا يجور، وإقامة الحق"(الطبري، صفحة 77).

ومن الأدلة على برهان الحكمة في مخلوقات الله: أن خلق العالَم كان بالحق فينبغي أن يكون بعد هذه الحياة حياة أخرى باقية لأن هذه الحياة ليست إلا لعبا ولهوا كما بين بقوله تعالى: [وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ (64)]. (سورة العنكبوت)، فخلق السموات والأرض للهو واللعب عبث، والعبث ليس بحق وخلق السموات والأرض بالحق فلا بد من حياة بعد هذه.

قال تعالى في تقرير نفي العبث واللعب عن ما خلقه: [وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ(38)مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (39)]. (سورة الدخان)، فينبه جل ذكره خلقه على صحة وجود البعث، وأنه لم يخلق الخلق عبثاً، بل خلقهم ليبلوهم أيهم أحسن عملاً وأقبل للطاعة، فيجازي المحسن بالإحسان والمسيء بما أراد، وهو قوله: {مَا خَلَقْنَاهُمَآ إِلَّا بالحق}، أي للحق والعدل.

{ولكن أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ}، أي: أكثر هؤلاء المشركين لا يعلمون أن الله خلق (ذلك لذلك) فهم لا يخافون عقاباً (ولا يرجعون لتكذيبهم) بالمعاد والثواب والعقاب"(القيسي، 1429هـ/2008م، صفحة 6747).

والعجب من حال أهل الكفر أنهم يقرون بأن الله تعالى خالق السموات والأرض، ثم هم بعد ذلك ينسبون إليه العبثية في خلقه لهما! ، وهذا في الحقيقة تسفيه منهم للخالق، وتناقض في لوازم الإقرار، وإلا فلا مناص من الاعتراف بحتمية وجود الحكمة الإلهية في خلقه لهذا العالم بالحق وللحق، وإلا فإقرارهم بالخلق والتدبير هو عين العبث والسفه.

قال الزمخشري رحمه الله في تقرير ما قلناه: "الجزاء هو الذي سبقت إليه الحكمة في خلق العالم من رأسها، فمن جحده فقد جحد الحكمة من أصلها، ومن جحد الحكمة في خلق العالم فقد سفّه الخالق، وظهر بذلك أنه لا يعرفه ولا يقدره حق قدره، فكان إقراره بكونه خالقا كلا إقرار"(الزمخشري، 1408هـ، صفحة 90).

والآيات في بيان الحكمة والعدل الإلهي في هذا السياق ظاهرة الدلالة وقاطعة الحجة في إلزام من لا حجة له لمن أنكر البعث، بأن يعترف به عقلا فضلا عن شواهد الفطرة وغيرها من الشواهد.

خاتمة:

في ختام هذا المقال خلصت إلى مجموعة من النتائج، أذكر أهمها على النحو الآتي:

- اعتمد القرآن الكريم في محاجة المشركين المكذبين بالبعث والمعاد على البراهين العقلية، ودعاهم لإعمال عقولهم بواسطة النظر والتدبر والتأمل في تلك البراهين.
- حَرِص القرآن الكريم على رد الافتراءات والشبه التي تثار في باب الاعتقاد بالدليل العقلي لأنه أقوى في إقامة الحجة على المعاند والمكابر، وأرسخ في تثبيته لدى قلب المسلم.
- الاستدلال بقياس الأولى على النشأة الأولى وعلى خلق السموات والأرض في إمكان المعاد من أقوى المسالك العقلية في تثبيت المسائل العقدية ودحض الشبه عنها.
- برهان إنبات الأرض بعد موتها من أيسر الطرق وضوحا في الأذهان على إثبات البعث.
- عدم الاعتراف بالبعث والمعاد من طرف منكريه، يستلزم عدم الإيمان بأن لهذا الكون خالقا مدبرا حكيما.
- تنوع طرق الاستدلال العقلي في إثبات المعاد دليل على وقوعه.
- إعراض المشركين عن قبول الحق والامتثال إليه لم يك بسبب ضعف أدلة القرآن في تقرير عقيدة المعاد وإنما كانت بسبب الهوى والكبر والحسد.
- التعنت وعدم القصد في الطلب يورّث ضعفا في العقل وتلفا في الفكر وقبحا في الأدب.

وأهم **التوصيات** التي أقترحها في هذا البحث ما يأتي:

- الاهتمام بكتب المتقدمين من جهة الأخذ بالاستدلال العقلي على العقيدة، لتمكُّن أصحابها من قوة الحجّة وبراعة الاستدلال.
- العمل على تكوين أبحاث في المجال العقدي، والاستدلال لها بالدليل العقلي، لتفشي سلطان العقل في الناس من جهة الإقناع والاقتناع.

هذا ما تيسر لي جمعه من نتائج وتوصيات في هذا الموضوع، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

قائمة المصادر والمراجع:

1. الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد. (1986). أدب الدنيا والدين (لا. ط). لا. م، دار مكتبة الحياة.
2. ابن فارس، أبو الحسين أحمد. (1399هـ/1979م). معجم مقاييس اللغة (الجزء 4). (المحقق: محمد هارون عبد السلام) دار الفكر.
3. أبو الحسين يحي بن أبي الخير العمراني. (1419هـ/1999م). الإنتصار في الرد على المعتزلة القدرية الأشرار (الجزء 1، الطبعة 1). الرياض: دار أضواء السلف.

4. ابن تيمية، أبو العباس أحمد بن عبد الحليم. (1416هـ/1995م). مجموع الفتاوى (الجزء 3). المملكة العربية السعودية: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف.

5. ابن تيمية، أبو العباس أحمد بن عبد الحليم. (1411هـ/1991م). درء تعارض العقل والنقل (الجزء 7، الطبعة 2). المملكة العربية السعودية: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

6. ابن عبد الدائم، أبو العباس أحمد بن يوسف. (1417هـ/1996م). عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ (الجزء 1، الطبعة 1). (المحقق، محمد باسل). دار الكتب العلمية.

7. ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل. (1420هـ/1999م). تفسير القرآن العظيم (الجزء 7، الطبعة 2). (المحقق، سامي بن محمد سلامة،) لا. م: دار طيبة للنشر والتوزيع.

8. ابن منظور، أبو الفضل محمد بن مكرم. (1414هـ). لسان العرب (الجزء 13، الطبعة 3). بيروت: دار الصادر.

9. الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمرو. (1408هـ). الكشّاف عن حقائق غوامض التنزيل(الجزء 4، الطبعة 3). بيروت: دار الكتاب العربي.

10.الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير. (د. ت). جامع البيان في تأويل آي القرآن(الجزء 17). مكة الكرمة: دار التربية والتراث.

11. الفيروز آبادي، أبو طاهر محمد بن يعقوب. (1426هـ/2005م). القاموس المحيط (الطبعة 8). (المحقق، مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة). بيروت-لبنان: مؤسسة الرسالة.

12. القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد. (1484هـ/1964م). الجامع لأحكام القرآن (الجزء 12، الطبعة 2). (المحققون، أحمد البردوني، و إبراهيم طفيش) القاهرة: دار الكتب المصرية.

13. الشافعي، أبو عبد الله محمد بن إدريس. (1427هـ/2006م). تفسير الإمام الشافعي (الجزء 3، الطبعة 1). (المحقق، أحمد بن مصطفى الفرّان) المملكة العربية السعودية: دار التدمرية.

14.الرازي، أبو عبد الله محمد بن عمر. (1420هـ). مفاتيح الغيب(الجزء 27، الطبعة 3). بيروت: دار إحياء التراث العربي.

15. ابن عرفة، أبو عبد الله محمد بن محمد. (2008م). تفسير ابن عرفة (الجزء 2، الطبعة 1). بيروت-لبنان: دار الكتب العلمية.

16. الهروي، أبو عبيد أحمد بن محمد. (1419هـ/1999م). الغريبين في القرآن والحديث (الجزء 1، الطبعة 1). المملكة العربية السعودية: مكتبة نزار ومصطفى الباز.

17. ابن أبي حاتم، أبو محمد عبد الرحمان. (1419هـ). تفسير القرآن العظيم(الجزء 7، الطبعة 3). المملكة العربية السعودية: مكتبة نزار ومصطفى الباز.

18. القيسي، أبو محمد مكي بن مختار. (1429هـ/2008م). الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره وأحكامه وجمل من فنون علومه(الجزء 10، الطبعة 1). الشارقة: مجموعة بحوث الكتاب والسنة.

19. الباقلاني، أبوبكر محمد بن الطيب. (1407هـ/1987م). تمهيد الأوائل في تلخيص الدلائل (الطبعة 1). (المحقق، عماد الدين أحمد حيدر) لبنان: مؤسسة الكتب الثقافية.

20. البدوي، أحمد أحمد. (2005م). من بلاغة القرآن. القاهرة: نهضة مصر.

21.أحمد مختار، عبد الحميد عمر. (1429هـ/2008م). معجم اللغة العربية المعاصرة (الجزء 2، الطبعة 1). عالم الكتب.
22. بنت محمد توفيق، أسماء. (1424هـ/2004م). آراء الصاوي في العقيدة والسلوك. كلية الدعوة وأصول الدين، العقيدة. جمهورية مصر: مكتبة النافذة.
23. حوى، سعيد. (1424هـ). الأساس في التفسير (الجزء 2، الطبعة 6). القاهرة: دار السلام.
24. سابق، سيد. (د. ت). العقائد الإسلامية. بيروت: دار الكتاب العربي.
25. الفوزان، صالح بن الفوزان. (1434هـ/2012م). شرح الأصول الثلاثة (الطبعة 4). الجزائر: دار المحسن.
26. الدهلوي، عبد الحق بن سيف الدين. (1435هـ/2014م). لمعات التنقيح في شرح مشكاة المصابيح (الجزء 4، الطبعة 1). دمشق_سوريا: دار النوادر.
27. السعدي، عبد الرحمان بن ناصر. (1420هـ/2000م). تيسير الكريم االرحمان في تفسير كلام المنان(الطبعة 1). لا. م: مؤسسة الرسالة.
28. السعدي، عبد الرحمان بن ناصر. (1420هـ/2000م). تيسير الكريم الرحمان في تفسير كلام المنان (الطبعة 1). لا. م: مؤسسة الرسالة.
29. الميداني، عبد الرحمان حبنكة. (1412هـ/1991م). كواشف زيوف (الطبعة 2). دمشق: دار القلم.
30. الخطيب، عبد الكريم يونس. (د. ت). التفسير القرآني للقرآن (الجزء 16). القاهرة: دار الفكر.
31. الجربوع، عبد الله. (1424هـ/2003م). الأمثال القرآنية القياسية المضروبة للإيمان بالله (الجزء 3، الطبعة 1). المملكة العربية السعودية: عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية.
32. صبح، عبد المجيد حامد. (1424هـ/2003م). الرد الجميل على المشككين في الإسلام، (الطبعة 2). مصر: دار المنارة.
33. الجرجاني، علي بن محمد. (1403هـ/1983م). التعريفات (الطبعة: 1). (المحقق، جماعة من العلماء بإشراف الناشر) بيروت-لبنان: دار الكتب العلمية.
34. الأشقر، عمر بن سليمان. (1415هـ/1995م). القيامة الكبرى (الطبعة: 6). الأردن: دار النفائس للنشر والتوزيع.
35. الشنقيطي، محمد الأمين. (1415هـ/1995م). أضواء البيان في ايضاح القرآن بالقرآن (الجزء 2). بيروت_لبنان: دار الفكر.
36. ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد. (1984م). التحرير والتنوير(الجزء: 17). تونس: الدار التونسية.
37. العثيمين، محمد بن صالح. (1436هـ). تفسير القرآن الكريم (الطبعة: 1). المملكة العربية السعودية: مؤسسة الشيخ ابن العثيمين الخيرية.
38. الخميس، محمد بن عبد الرحمان. (1419هـ). إعتقاد أهل السنة شرح أصحاب الحديث (الطبعة 1). المملكة العربية السعودية: وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد.
39. صافي، محمود بن عبد الرحيم. (1418هـ). الجدول في إعراب القرآن الكريم (الجزء 8، الطبعة 4). دمشق: دار الرشيد.